رحلة بين عالمين

أعجبت بالأديب الإيطالي "ألبرتو مورافيا"، وصفقت للكولومبي "جبريل جارسيا ماركيز"، ونزعت قبعتي احترامًا وتقديرًا للبرازيلي "باولو كويلو" ذلك الأديب الذي استطاع أن يتحسس الطريق إلى النفس البشرية، كاشفًا الصراع الأبدي بين الخير والشر مجسدًا إياه في عالم من الخيال الواقعي .. ورست سفينتي على شواطئ الأدب الأمريكي، وعندما رحلت عنه كان لدي انطباع معين جعلني بعيدًا لفترة، فقد ظننت في بادئ الأمر أن أدب الرعب هو المتصدر للقمة وأنه لا يوجد غيره على ساحة الأدب الأمريكي، ولكن شاء القدر أن تكون رواية "أن تقتل طائرًا بريئًا" بمثابة تصحيح لهذا الاعتقاد، ليس هذا فقط، بل كانت بمثابة بطاقة خضراء شجعتني على أن أقوم بعدة زيارات إلى الأدب الأمريكي .. أعجبت جدًا بالرواية وأعتقد أنني كنت قد قرأتها منذ فترة تحت عنوان "لا تقتل عصفورًا ساخرًا" دمشق ١٩٨٤ ترجمة توفيق الأسدي (على ما أعتقد) لكنني أشيد هذه المرة بترجمة د. داليا الشيال، لكن أجدني مضطرًا قبل التعمق في الرواية أن أقف أمام التساؤل الذي ألهت به د. داليا الشيال مقدمتها للرواية فهي تقول: "وإني أدعو القارئ في النهاية لأن يتساءل معي عن مدى قبول مقولة "هاربر لي" التي تصدرت هذه المقدمة والتي تعبر فيها عن عدم رضاها عن المقدمات" وتقصد هنا قول الأديبة : "بوصفي قارئة فأنا أكره المقدمات فهي تذهب بلذة النص، وتضيع بهجة التوقعات وتحبط ما ينتاب القراء من فضول" .. وجاء هذا التساؤل بعدما عرضت لنا د. داليا الاختلاف والتباين بين جنوب الولايات المتحدة وبالأخص ولاية "ألاباما"، وباقي الولايات من حيث العادات والتقاليد وبعض الاختلافات اللغوية، إذ أن بعض المفردات التي استخدمتها الأديبة "هاربر لي" لا تستخدم إلا في أقاليم بعينها في جنوب الولايات المتحدة –كما ورد في مقدمة د .داليا، إلا أنني مع كل هذا لا أجد أن الأديبة "هاربر لي" كان يتحتم عليها كتابة مقدمة، وأتذكر بهذه المناسبة مقدمة رواية "بين الأطلال" للروائي "يوسف السباعي" فهو يقول فيها: "سألني أحدهم عما يدعوني إلى هذه المقدمة التي تعودت أن أبدأ بها كتبي و أنبأني أنها لا فائدة منها ولا داعي لها .. وقد يكون على

حق، فما حاولت من قبل أن أقرأ مقدمة كتاب، بل إني غالبًا ما أتجاوز عن بضع الصفحات الأولى، وأبدأ القـــراءة مـــن أول الكتاب. ويبدو لي أن هذا ما يفعله الكثير من القراء، ومع ذلك فإني مُصرّ على أن أكتب المقدمة، إذ أحس برغبة في التحدث إلى قارئي، وأكره أن أجهد نفسي في كتابة كل هذه الصفحات ثم ألقي بها إليه بلا كلمة واحدة بيني وبينه" .. إذن فهو يرى أن المقدمة هي الفرصة الوحيدة التي يستطيع فيها الأديب أن يظهر لقارئه ويتحدث إليه، وهذا من حقه بلا أدنى شك، فمـــن حقه أن يظهر ويقدم شخصياته وأفكاره .. وأمام إصرار الروائي "يوسف السباعي" على كتابة المقدمـــة، ورفـــض الأديـــة الأمريكية "هاربر لي" لكتابة المقدمات، وتساؤل د. داليا الشيال أجدني مضطرًا لأن أتقمص شخصية "أتيكوس" مدافعًا عـــن وجهة نظر الأديبة الأمريكية أمام وجهات نظر أبناء جنسي!! في حقيقة الأمر أنا أضع نفسي مكان الأديبة و أحاول أن أنظر إلى الموضوع من وجهة نظرها، أليس هي التي قالت على لسان بطل روايتها "أتيكوس" وهو ينصح ابنته: " لن تعـــرفي أبـــدًا إنسانًا ما على حقيقته حتى تضعي نفسك مكانه وتنظري للأشياء من وجهة نظره" .. فالأديبة لم تشأ الظهور بكلمة منمقة في بداية روايتها بل فضلت أن يكون غلاف روايتها بوابة تطل مباشرة على عالمها المليء بالمشاعر الرقيقة والراقية في آن واحـــد، والمليء بالصراعات بين القيم والعادات والتقاليد، أليس هي التي ضاقت بالشهرة ورفضت الضغط الذي سببه لها نجاح روايتها فتوارت وفضلت أن تكتب عندما يأتيها الإلهام، إذن هي رفضت حقها في الظهور للقارئ و لم تكن مجبرة على كتابة مقدمة، فإن وجد القارئ الأمريكي صعوبة في الرواية فهذا عيبه وليس عيب الأديبة، كما أنها لم تكن تتوقع أن تتـــرجم روايتـــها إلى لغات أخرى بل إنها لم تتوقع نجاحًا لها، تقول "هاربر لي" للـــ "نيو كويست" ١٩٦٤: "لم أتوقع نجاحًا لهذه الرواية. كنت آمل لها موتًا سريعًا ورحيمًا على يد النقاد لكن في الوقت ذاته تمنيت أن تعجب شخصًا ما بشكل كافٍ ليشجعني. تمنيت القليـــل ونلت الكثير جدًا. وبشكل ما كان هذا مرعبًا مثل ذلك الموت السريع والرحيم الذي توقعت". أما بالنسبة لمقدمة د. داليـــا فهذا شأن آخر، فمقدمة المترجم شيء حتمي، فالمترجم يقوم ليس بترجمة كلمات فحسب، بل إنه يقوم بترجمة ثقافة وبيئـــة

ومجتمع في آن واحد، فالمترجم يظهر في المقدمة ثم يعاود الظهور في النص كثيرًا، فيكون تواجده بمثابة جرس إنذار ينبه القارئ أنه في منطقة ثقافة مختلفة وبهذا يقبل القارئ ما يقرأه حتى إن كان متنافيًا مع ثقافته وبيئته، إذن يتحتم علينا أن نقبل مقولة الأدبية، وفي الوقت ذاته نصفق للمترجمة على ما بذلت من جهد وتفاني وإخلاص، ومقدمة قرأتها بكل حواسي واحترمت كاتبتها، والحق أنها نجحت كما تمنت في أن تقدم للقارئ تمهيدًا عن الرواية وأن توضح من خلال مقدمتها ما ينير له الطريق كي يحصل على المتعة والفائدة.

"الشجاعة تكون حين تعلم أنك خاسر حتى قبل أن تبدأ ولكنك تبدأ على أية حال، وتحاول أن تصل بقضيتك الخاسرة إلى آخرها مهما كان الأمر. قد لا تكسب إلا نادرًا، ولكنك ستكسب على أية حال". هكذا ينتهي الجزء الأول من الرواية بكلمات "أتيكوس" معلمًا ابنه "جيم" معنى الشجاعة. أعتقد أنني كنت في حاجة إلى هذا المعنى لكي أمسك قلمي وأشرع في كتابة هذه المقالة فهي أولى كتاباتي التي لن يكون مصيرها في النهاية درج مكتبي، إذن هذا المعنى وحده كفيل بأن يعرفنا مدى حكمة الأب "أتيكوس فينش"، وفي الحقيقة استعجبت كثيرًا عندما وجدت أن كثيرًا من الناس يعتقدون أن الرواية تناقش قضية العنصرية!، كما أنهم يعتقدون أن الطائر البريء الذي سميت الرواية باسمه هو "توم روبنسون" رغم أن قضيته لم تكن إلا عاصفة مرت على أسرة "أتيكوس" الذي كان في بداية الأمر بين اختيارين في غاية الصعوبة ألا وهما مبادئه وقيمه النبيلة، و أطفاله .. كانت مبادئه تحتم عليه قبول القضية، بيد أنها وكلت إليه من قبل القاضي "تيلور"، لكنه قبلها بكل تفانٍ وإخلاص، لكن ما كان يقلقه هو أن تؤثر هذه القضية على أطفاله كما قال لأخيه "جاك فينش": "ما يقلقني فهو أنها (يقصد "سكاوت") و"جيم" سيضطران إلى أن يستوعبا بعض الأمور البشعة على نحو أسرع مما يجب" .. والحق أن قضية "توم روبنسون" كانت زوبعة حقيقية لكن "أتيكوس" بحكمته جعلها في فنجان، فعندما حزن "جيم" بسبب أن المحلفين أدانوا "توم روبنسون" وسأل والده: "كيف لهم أن يفعلوا ما فعلوه؟ كيف؟ " كان جواب الأب رغم حزنه قائلاً بحكمة: "لا أعرف، ولكنهم فعلوه. لقد فعلوا

ذلك من قبل وفعلوه الليلة وسيفعلونه من جديد وحين يفعلونه .. يبدو أن الأطفال وحدهم هم الذين يبكون" .. لقد استطاع "أتيكوس" أن يكسب ثقة طفليه بصدقه معهم، بيد أن أفراد عائلته كانوا ينقدون أسلوبه في تربية أطفاله إلا انه ظل على ما هو عليه، رغم أن بعض الآباء عندما يحدثهم أحد عن أفعال أطفالهم فإذا بهم ينهرون الأطفال على أنهم تسببوا في هذا إلا أن الأب الحكيم ظل على معاملته لأطفاله، منحهم الحرية وتابعهم من بعيد ليتدخل إذا لزم الأمر، حتى أن "سكاوت" قالت: "عندما فكرت في الأمر بعد سنوات استعجبت كيف عرف "أتيكوس" هذا"، كما أنه كان يقول عن ابنته: "إنها تسير نحو الأفضل. لقد نضج "جيم"، وهي الآن تقلده وكل ما تحتاج إليه بعض المساعدة في بعض الأحيان"، لقد استطاع أن يجعل أطفاله يدركان البيئة التي يعيشان فيها دون أن يجعل هذا يؤثر على طفولتهما .. إذا نظرنا حولنا في مجتمعنا سوف نرى أن الأبناء أصبحوا يستخفون بحديث آبائهم ويسخرون منه بقولهم (دقة قديمة) أليس هذا ما نراه بأعيننا؟ إن هذا سببه هو عدم الصدق مع الأطفال، يتهرب الآباء من الإجابة على بعض الأسئلة التي يسألها أطفالهم، فعندما يستطيع الطفل أن يصل للإجابة من شخص خارج الأسرة يفقد ثقته في والده .. لكن "أتيكوس" له رأي آخر فهو يقول لأخيه : "جاك، حين يسألك طفل عن شيء ما فأجبه، بحق السماء، ولا تحاول أن تجعل من إجابتك عملاً دراميًا، فالأطفال هم الأطفال، ولكنهم يستطيعون أن يميزوا التهرب من الإجابة أسرع مما يستطيع الكبار أن يفعلوا . فالتهرب ببساطة يشوشهم"، لقد صدق "أتيكوس" ودليل صدقه قدمه أخوه عندما قال له: " لقد أعطتني ابنتك أول درس لي عصر هذا اليوم، قالت لي إني لا أفهم في معاملة الأطفال وشرحت لي الأسباب، وكانت على حق تمامًا. لقد قالت لي يا أتيكوس كيف كان يجب علي معاملتها. يا إلهي، أنا آسف جدًا" .. ببساطة لقد منح الأب أولاده ثقته فمنحوه ثقتهما، أخذ بأيديهم ليعبروا هذه المرحلة العمرية، فكان نعم الأب وكانا نعم الأبناء .. وبذلك استطاع أن يعبر بهم المحنة التي تعرضت لها أسرتهم من جراء قضية "توم روبنسون" .. إن أخطر شيء يؤثر على الأطفال بالسلب عندما نجعلهم يشعرون أن طفولتهم عاهة، أن نحرمهم من المعرفة بحجة أنهم لن يستوعبوا ما نقول، ثم بعد أن يصلوا

إلى سن الشباب يجدون أنفسهم مصدومين في الواقع بكل ما فيه من بشاعة، وهذا هو هدف رواية "أن تقتل طائرًا بريئًـــا"، هدفها أن ننظر لكل شيء من وجهة نظر الأطفال، فعندما اختارت "هاربر لي" راوي للأحداث اختارت الطفلة "سكاوت"، ولكن في نهاية الرواية إذا بها تنظر للرواية بعين "بو رادلي" فنجد الأحداث عادية جدًّا، أليس هذا يدعونا إلى أن نعـــرف مـــا هدف رواية "أن تقتل طائرًا بريئًا"، الهدف هو أن ننظر إلى كل القضايا حولنا بعين الأطفال الذين هم أكثرنا مثالية فلم تقضِ الهموم على مثاليتهم بعد، وسوف أقتبس جزء من حديث "أتيكوس" نفسه لكي أدعم وجهة نظري فهو يقول "إن عصابة من الوحوش يمكن أن تُوقف عند حدها لأن أفرادها مازالوا بشرًا .. أنتم الأطفال جعلتم السيد كانينجهام يحس بورطتي للحظات" .. كما يدعم وجهة نظري المناقشة التي جرت بين الأطفال ومعلمتهم حول أفعال "هتلر"، أيضًا عندما هرب الطفل "ديل" من منزله وذهب إلى أسرة "أتيكوس" وسألته "سكاوت" عن سبب هروبه، وسألته إن كان والده و والدته خسيسين فكان جوابه: "إنهما يكونان في حال أفضل بدوني ولا أستطيع أن أقدم لهما شيئًا إنهما ليسا خسيسين، فهما يشتريان لي كل ما أريد ، ولكن المسألة هي: الآن بعد أن حصلت على ما تريد اذهب والعب به وحدك .. لديك غرفة مليئة بكل الأشياء. لقد جئـــت لـــك بكتاب اذهب واقرأه .. إنهما يقبلانك ويعانقانك عند النوم وعند الاستيقاظ في الصباح وعند الوداع ويقولان لـــك إنهمـــا يحبانك " .. إن الأديبة "هاربر لي" بكل صدق استطاعت أن تجذب القارئ إلى عالم الأطفال ونظراتهم للأمور بل وتأثيرهم في البيئة من حولنا .. والحق الحق أنها نجحت في كل ما أرادت ..

أما بالنسبة للطائر البريء الذي يقصده العنوان فسوف أناقشه ولكن أريد الآن أن أشيد بشخصية مهمة جـــدًا في أحـــداث الرواية، فإن كان "أتيكوس" هو الشمس فلابد أن تكون هذه الشخصية هي القمر. هذه الشخصية هـــي الآنســـة "مـــودي أتكنسون" التي استطاعت أيضًا أن تكسب ثقة "سكاوت" و"جيم". تقول "سكاوت": "وثقنا أنا وجيم إلى حد كبير بالآنسة مودي فهي لم تَشِ بنا على الإطلاق، و لم تتتبع سقطاتنا، هذا إلى جانب أنها لم تكن مهتمة إطلاقًا بحياتنا الخاصـــة، كانـــت

صديقة لنا"، وعندما كانت "سكاوت" تجلس مع العمة "ألكسندرا" وبعض نساء مايكوم وتحدثت بأسلوب طفولي بسيط وضحكن، لم تضحك الآنسة "مودي". تقول "سكاوت": "لم أكن أقصد أن أثير الضحك، ولكن السيدات ضحكن ، احمرت وجنتاي حين أدركت خطئي، ولكن الآنسة مودي نظرت إلي نظرة جدية. إنها لا تضحك أبدًا إلا إذا قصدت أن أكون مضحكة". لم تتوقف مثالية الآنسة "مودي" على هذا فقط بل أيضًا أعطت الآنسة "مودي أتكنسون" لـ "سكاوت" ولنا درسًا في "فلسفة الأزمات"، فعندما اخْترق مترلها سألتها "سكاوت" قائلة: "ألستِ حزينة يا آنسة مودي؟ "، فردت عليها قائلة: "حزينة يا طفلتي ؟ عجبًا كنت أكره حظيرة البقر هذه. لقد فكرت أنا نفسي في إحراقه مئات المرات، لولا خوفي من أن يحبسوني، سأبني لنفسي مترلاً صغيرًا وأؤجر غرفة أو غرفتين منه، ثم سيكون عندي أجمل فناء في "ألاباما". إذن عندما أصابتها هذه الكارثة لم تجلس بجانب أطلال مترلها تبكي على المفقود، لكنها فكرت وخططت للمستقبل.

أما الطائر البريء الذي يشير إليه عنوان الرواية فهو بلا أدنى شك "بو رادلي". عندما يرى طفل ما طائرًا فهو يسعى خلفه، يطارده، يقترب منه محاولةً منه أن يتعرف على عالمه، وهذا ما كان يقوم به الأطفال، إن الطائر المحاكي مصدر سعادة وإثارة للفضول بالنسبة للأطفال هكذا كان "بو رادلي" بالنسبة للطفلين "سكاوت" و"جيم" وأيضًا صديقهم "ديل" وإذا نظرنا إلى قول "أتيكوس": "كفاكِ فلم يعد بمقدوري وأنا في هذه السن أن أمنعكم من تخطي حدود ملكية عائلة رادلي، بالإضافة إلى ذلك فالمكان خطر كان يمكن ان يتعرض أحدكم للقتل في إحدى المرات". أليس هذا القول مشابه لهذا " لا تطارد طائرًا محاكيًا حتى لا تصدمك سيارة"؟ ليس هذا فقط بل أيضًا عندما ننظر إلى نهاية الرواية نجد ان المأمور "هيك تيت" كان يقنع "أتيكوس" بأن يكون الأمر كأن "بوب يوويل" قتل نفسه، أصر أتيكوس أن يكون "جيم" هو الذي قتله مدافعًا عن نفسه وعن أخته فقد كان يخشى ألا يعي طفلاه الأمر فيؤثر على المبادئ التي علمهم إياها لكنه في النهاية يوافق على رأي المأمور. وهنا يجب ان نتساءل لماذا وافق؟ ويكون الجواب حتى لا يضر طائرًا بريئًا، لأن الذي قتل "بوب يوويل" هو "بو رادلي" وإن كان

هذا انتشر في البلدة كان سوف يعرضه للأذى، عندما وافق "أتيكوس" على اقتراح المأمور نظر إلى "سكاوت" وقال لهـــا إن "بوب يوويل" قتل نفسه خطأ فأجابته بالايجاب، فكان عكس ما كان يتوقعه منها، فلما استفسر منها حول ســـبب تأييـــدها أخبرته بما معناه أن تقتل طائرًا بريئًا .. لقد نضجت "سكاوت"، وهكذا تنازل "أتيكوس" عن مبادئه لمرة، وفهمته طفلته، إنه لم يتنازل لأي سبب سوى ألا يقتل طائرًا بريئًا.

فعندما ننظر حولنا، نرى معظم الآباء سئموا الرسالة وألقوا الألواح مثل ما فعل سيدنا موسى، وإذا بأبنائهم يفعلون مثل ما فعل ابن سيدنا نوح فإذا بهم يبحثون عن جبل يعصمهم من الماء .. حينها يجب أن نتمنى آباءً مثل "أتيكوس" لكي نصـــنع جـــيلاً ناضجًا بكل ما في الكلمة من معنى، بيد أن أطباء الأمراض النفسية والعصبية يتمنون أشخاصًا مثل العمة "ألكســـندرا" لكـــي ينعشون خزائنهم!!

محمد شاهين